الشرق والغرب في (عصفور من الشرق) لـ"توفيق الحكيم"

فطيمة بن ربيعي
جامعة المديّة

عرضت العديد من الدراسات الفكرية والأعمال الأدبية للعلاقة بين الشرق والغرب، هذين القطبين المتجاورين جغرافيا، المتباعدين فكريا وعقائديا وثقافيا، ما زاد في ذلك التباعد الصراع الذي صنعه التاريخ وغذّته السياسة. كما نجد له صورا مختلفة في الآداب العالمية؛ تنوعت بين ما ينسج حول الشرق من روحانية وما ينسب إلى الغرب من مادية وتفوق حضاري، وما نتج عن ذلك من صدام فكري، وعقائدي... إذ أن « مفهومي الغرب والشرق استُخدما ووُظفا في سياقات غامضة، وساهم هذا الاستخدام في إنتاج صور نمطية stéréotypes[1] ملتبسة عن الغرب وعن الشرق. فقد تحول كل من الغرب والشرق إلى مفهوم متمثل أو تمثيلي... حيث نسجت مكوناته ومركباته وفق أشكال متخيلة ونمطية تستلهم كل إمكانيات التهميش والإلغاء... »،[2] وراح الأدباء والفنانون – في مختلف المجالات- يستلهمون تلك الصورة في أعمالهم وإبداعاتهم، عاكسين بذلك أفكارهم وتصوراتهم التي تربط هذين القطبين.[3]

لقد تناول هذه العلاقة العديد من الأدباء العرب، منذ فترات زمنية بعيدة، تعود إلى بداية الاتصال
بين القطبين عن طريق الحروب، والحملات التبشيرية، والرحلات... وصولا إلى العصر الحديث؛ بعد اختزال المسافات الطويلة، وتوطد تلك الصلات أكثر... من أولئك نجد **"توفيق الحكيم"**[4] الذي طرح هذه العلاقة في روايته **(عصفور من الشرق)**[5] الصادرة عام 1983م. حيث نجح في تحويل الرواية إلى معرض لأفكاره المثالية عن التناقض القائم بين روحانية الشرق ومادية الغرب. إذ جاءت روايته –

هذه- في وقت كانت فيه الدنيا تضطرب بأفكار جديدة، كما كانت تتصادم فيها الاتجاهات المختلفة والعقائد والتقاليد، وكانت أفكار أوروبا تنتقل بسرعة إلى الشرق القديم. [6] من هنا ظهرت عظمته الأدبية والثقافية في إبراز قضايا متعددة تخدم الواقع والفن والأدب، حيث قال: « إن الأديب العظيم هو مرآة لعقلية عصره كله، إن الأدباء العظام هم الذين يتكونون تكوينا عميقا، ويقرؤون كل شيء ويحيطون بكل معرفة من منابعها الأولى، ويتابعون آخر تطورات العلم والفن والأدب والسياسة...» . [7]

تُعد هذه الرواية لونا من ألوان (رواية التجربة الشخصية)، فكل الصفات الجسدية والنفسية التي خصّ بها الكاتب شخصية البطل "محسن" هي صفاته عينها، [8] حيث « لم يكن قد أكمل بعد عامه العشرين.. لقد كان أبوه المستشار يريده محاميا.. وكان هو يرى أن رغبته كانت تتجه ناحية الفن، والأدب... » [9]، وتجربته في بلاد الغرب تجربته هو؛ فقد جاء (باريس) ليدرس الحقوق والأدب. [10] « يبدو أن السنوات الخمس بين ظهور **(عودة الروح)** وظهور **(عصفور من الشرق)** كانت أكثر السنوات عذابا في حياته الفنية، لأنه كان يتمثل خلالها فنيا ذلك الصراع الهائل الذي نشب في أعماقه أثناء وجوده في فرنسا بين الحربين، وراح يستعيد في خياله تلك المرحلة التي وضعته بين اختيارين كلاهما أشق على النفس من الآخر: الشرق أم الغرب ؟ فالشرق في نفسه غائر حتى الجذور التي تمد قلبه بشرايين الحياة، والغرب في ذهنه ماثل حتى النخاع فهو الذي يمد عقله بأسباب الوجود، وبين القلب والعقل بدأت رحلة العذاب في أدب "توفيق الحكيم" ». [11] إنه يحاول من خلال هذه الرواية - عبر شخصياته- تقديم صورة للشرق (الشاب المشرقي) في مقابل الغرب (الغربيون الذين اِلْتقاهم حين إقامته هناك). فما هي تلك الصورة ؟ وما هي طبيعة ملامحها المقدمة عنهما ؟ وما الوسائل التي استعان بها لسردها ؟ .

1- تقديم الرواية:

يتناول فيها "الحكيم" يوميات الشاب "محسن" في (باريس) - حيث سافر إليها تلبية لرغبة والده في أن يتم دراسته - تدور أحداث القصة حول العلاقة التي ربطته بالفتاة الفرنسية "سوزي" - بائعة التذاكر- التي هام في حبها وراح يتتبع طيفها طوال ساعات يومه، إلى أن سنحت له الفرصة لمحادثتها، لتبدأ علاقتهما تتوطد أكثر مما كانت عليه، فكانا يلتقيان إما في المقهى للتحادث أو في الفندق لتناول العشاء. لتكون "سوزي" في كل ذلك تلك الفتاة الشقراء المرحة المبتسمة الباحثة عن اللهو، وتمضية الوقت، ويكون "محسن" ذلك العاشق الولهان، المتيم العاجز المتردد في مصارحتها بحبه إياها، ليقرر إبلاغها بذلك عن طريق قصيدة يشرح فيها عاطفته، مع استمرار محاولاته الغرامية (المشرقية) رغم تنبيه صديقه "أندريه" بأن الفتيات في باريس لا يحتجن إلى كل ما يفعله.

تستمر الأوضاع على ما هي عليه، إلى أن جاءت إحدى الأمسيات التي تفاجأ فيها "محسن" أو بالأحرى اكتشف فيها حقيقتها، حيث بقي حائرا بين هيامه بملامح فتاته البريئة التي أحبها، وبين تلك الشقراء المستهزئة المتجاهلة الواقفة أمامه بكل برودة عندما رأت أحد أصدقائها؛ حيث يمّمت وجهها نحوه، متجاهلة حضوره، ليبقى مذهولا متسائلا عن سبب تصرفها، دون أن يجد جوابا لذلك، عندها يكتشف الأمر، بأنه كان مجرد لعبة استغلتها شقراؤه لتمضية وقتها ليس إلا. لتخبره بعد أيام من تساؤله وألمه وانعزاله بأنها ما تزال تعتبره صديقا... على إثر ذلك يقرر الانتقال إلى غرفة أخرى في النزل الذي يسكنه صديقه الروسي "إيفانوفيتش" الملحد، الذي كثيرا ما حادثه عن الشرق وحكمته وأنبيائه...، مشيرا إلى إعجابه بروح المحبة والسلام التي تسوده، تلك الروح التي افتقدها مع طغيان مادية الحضارة الغربية وحيوانيتها -على حد تعبيره- قصده "محسن" وهو يعاني من وعكة صحية لم تكن أقل أثرا على نفسه من وعكته العاطفية، فكلاهما هائم في بحر آلامه، تائه في بحثه عن برّ السلام والأمان. هناك، يعيد "إيفانوفيتش" حديثه عن

حكمة الشرق وصفائها، مؤكدا لـ"محسن" أنه عازم على بيع كتبه وكل ما يملك ليؤمم وجهه شطر الشرق الرحب، طالبا منه أن يعود به إلى هناك، لكن "محسن" يحاول قطع حبل أمنياته وإخباره بأن الشرق في أيامه – تلك– لم يعد ذلك الشرق الذي قرأ عنه وسمع أخباره، وحلم أن يعانق نسيمه المنعش، ويرتوي من نبعه الصافي، فكل شيء تعكر وتسمم، لكنه يشفق عليه في لحظاته الأخيرة، حيث كانت آخر أمنياته ووصيته إليه – وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة– العودة إلى الشرق حاملا ذكراه معه. [12]

2-الشرق والغرب من خلال سرد الشخصيات:

2-1- الشخصيات الشرقية :

✓ **شخصية "محسن":**

يقدم "الحكيم" صورة للشرق، ممثلة في السلوكات والعقيدة والعادات والأعراف، من خلال سرده لشخصية "**محسن**" الشاب المصري/ المشرقي، الذي سافر للإقامة في بلاد غير بلاده، حاملا في وجدانه وذهنه ذكريات عن بلده الأم (مصر)، وغيره من الشخصيات الثانوية التي استحضرها خلال سرده لشخصيات روايته.

إنه شاب في مقتبل العمر، «عيناه الواسعتان تتأملان نافورة الميدان، وهي زاخرة بالماء، وفمه ذو الشفاه العريضة يلوك شيئا كالبلح... هذا الآدمي فتى نحيل الجسم، أسود الثياب، على رأسه قبعة سوداء عريضة الإطار، في قمتها فجوة غائرة». [13]

هكذا قدم "الحكيم" شخصيته البطلة (محسن) دون أن يخبرنا عن المنطقة التي جاء منها، متى جاء إلى باريس ؟ من أين يأتيه مورد رزقه ؟ هل سيبقى طويلاً بباريس، أم سيعود إلى بلده ؟ كيف تعلم اللغة الفرنسية ؟ .. لكنه يحرص على تأكيد أنه كان يكرس معظم وقته للقراءة، حيث قال عنه الشيخ الفرنسي – صاحب المسكن الذي يقطنه– في حوار له مع زوجته :

« – إنه فيما يبدو لي، شاب لا يميل إلى اللهو كسائر الشبان !...

- حقيقة إنه لا يحب سوى المطالعة والتأمل والموسيقى... ». [14]

وفي مرّة أخرى حينما سأل "أندريه" عنه أجابت والدته قائلة:
« إنّه في حجرته.. جالس على مكتبه، وطالما يفاجئه المساء، وهو أمام كتابه بلا حراك، وكثيراً ما أدخل حجرته، فأجد الظلام مخيّماً عليه، وهو جالس جامد كالتمثال، فأدير له مفتاح الكهرباء.
يجيبها "أندريه" :
ـ إنّه غريب الأطوار! إني أعرفه حقّ المعرفة !... ». [15]
أما عن سبب تواجده في فرنسا فكان بدافع دراسة الأدب والحقوق، [16] إلا أنه لا يظهر في الرواية إلا جالسا في المقهى بانتظار خروج محبوبته العاملة في شباك تذاكر المسرح المقابل. تقول "كلوتيلد" إحدى موظفات المسرح:
«– إني أراه دائما جالسا في القهوة التي أمامنا يطيل النظر إلى هذا الباب !... ». [17]

في تعليق آخر يقول الراوية « لم يكن لـ"محسن" بعد ذلك من عمل إلا الاستمرار في النوم إلى الضحى،.. إلى أن يكمل النوم فينهض في تراخ، ويرتدي ثيابه على مهل، ثم يخرج إلى مطعم (الأوديون)* بجوار المسرح ينتظرها فيه للغداء...» . [18]

من ناحية تفاعل "محسن" مع الأجواء الجديدة (الأوروبية)، فإنه لم يكن فعالا؛ إنما كان متلقيا وردود أفعاله متوقعة، حيث نقل بيئته السابقة بحذافيرها، ولم ينسها أو حتى يقارنها بالقيم الجديدة المحيطة به. فقد كان مكتفياً بنفسه، لا يؤثّر ولا يتأثر، وما من تفاعلٍ بينه وبين بيئته الجديدة، أي ما من صيغة ثالثة تنجم عادة من تصادم حضارتين. هكذا فإنّ ردود أفعاله على ما يصادفه من مستجدّات، تأخذ صيغة الأفعال الانعكاسية، لا ترتفع بالإنسان إلى الإدراك الشامل واستنباط ما يمكن استنباطه من تجارب. كان "محسن" منذ الصفحة الأولى شيئا مختلفاً عن الباريسيين؛ فبينما كان هناك « مطر غزيرٌ قد ألجأ الناس إلى مظلات المشارب والحوانيت، وإلى الحيطان وأفاريز البيوت ومداخل المترو... لم يبق في ميدان

(الكوميدي فرانسيز) غير مياه تتدفق من الميلزيب، وسيارات تخوض في شبه عباب.. آدميّ واحد ثبت لهذا المطر، وجعل يسير الهوينا غير حافل بشيء، .. »[19]لقد كان حاضرا غائبا عن تلك الأجواء. فبينما كان "محسن" ما يزال منقوعاً بالمطر، بلا اكتراث، واقفا أمام تمثال الشاعر "دي موسيه" دار بينه وبين "محسن" الحوار الآتي :

- « قبل كلّ كلام، أنْجُ بي وبنفسك من هذا المطر، ليس هذا وقت النظر إلى التماثيل !..
- بل هذا وقته !.. تأمّلْ يا أندريه !.. هذه الدموع في عيني الشاعر!..
- لو لم يكنْ هذا الشاعر من رخام لَوَلَّى الساعة هارباً هو وعروسه إلى أقرب قهوة، وتركاك وحدك وسط هذه المياه !...»[20]

كما أنه يمترس نوعا من الحرية الفردية التي جلبها معه من القاهرة، ما يزيد من تأكيد ذلك ما سرده الراوية من وضع البلح في الجيب وأكله في الشارع، ورمي النوى كيفما اتفق، وغير ذلك من عادات مجلوبة، لا تنسجم مع البيئة الجديدة ؟ هذا ما نلمسه في تعليق صديقه الفرنسي الباريسي "أندريه"، بعدما تفطن إلى فمه وهو يلفظ نواة، فصاح به :

- « تأكل بلحاً !..
- نعم.. وفي شوارع باريس !..
- آه أيها العصفور القادم من الشرق !..
- في مصر نسمّيه (عجوة).. هذا النوع من البلح.. إني أتخيّل نفسي الآن في ميدان المسجد بحيّ السيدة زينب! وأتخيّل هذه النافورة ذلك (السبيل) بنوافذه...ذات القضبان النحاسية.. ».[21]

يمثل سلوك "محسن" – بهذا- أحد مفاهيم الحرية الفردية التي جلبها معه من القاهرة. وسط كل تلك الأجواء المتجاذبة بين حضور القيم الذاتية وعدم الاكتراث بالقيم الغيرية، نجد "محسن" – العصفور القادم من الشرق- متعلقا بالفنون الأوروبية من مسرح وموسيقى. على الرغم من أنه لم يكن عارفا بأسرارها، إلا أنه سرعان ما

اندمج مع أجوائها؛ حيث لجأ إلى حيلة لتدبير الثياب اللازمة لمثل تلك المناسبات، لا عجب، فإنه لم يكن يعرف عن الموسيقى ولا عن "بتهوفن" ولا "بارسيفال" شيئا؛ لكن في تلك المرحلة" اشتد حبه للموسيقى الغربية، التي كانت الموسيقى هي الآصرة الأقوى بين "محسن" وبيئته الجديدة؛ لأنها لغة تجريدية، لغة روحية تصعد به من سماء إلى سماء، أعلى فأعلى. [22]

كما تظهر عناوين المؤلفات وقصائد وأسماء المشاهير التي رددها "محسن"- على طول فصول الرواية، مستشهدا بها أو منكرا لها - على درجة الوعي والثراء الثقافي الذي يمتاز به عصفور الشرق، نذكر منها على سبيل المثال : "الجاحظ"، "الموصلي"، "عمر الخيام"، و"حافظ الشيرازي"... فقد « جاء "محسن" محملا بكل أفكار الشرق وحضارته.. إن هذا الحشد العقلي والنفسي لتراث الشرق هو بمثابة القوى المعادلة لوجوده في مناخ الغرب، وتحت سطوة وجبروت حضارته المادية.. إنها وسائل دفاعه ضد الابتلاعية [23] ». [24]

إضافة إلى شخصية أخرى ثانوية، مثلها الشيخ الذي التقاه في حديقة (لوكسمبورغ)، ذلك المصري الذي كان يدرس في الأزهر، وجاء إلى باريس لإكمال دراسته العليا في الدين المقارن، لكنه كان مولعا بالتجوال في شوارع باريس للتطلع إلى السيدات الجميلات. من تجولاته تلك تعرف على "أناتول فرانس" الكاتب الفرنسي الشهير، الذي علم في وقت لاحق أنه قد كتب مقدمة كتاب (صوت مصر) لصاحبه "فكتور مارجيت" الذي يدافع فيه عن مصر واستقلالها. [25]

اختار "الحكيم" الشخصيات الشرقية من الطبقة المثقفة التي كان لها حظ الاحتكاك مع البلاد الغربية عن طريق مواصلة مشوارها التعليمي بمعاهدها وجامعاتها... حيث مكنها ذلك من التعرف أكثر على ثقافتها، والتواصل مع رجالها والتمتع بنشاطاتها.

2-2- الشخصيات الغربية:

حرس "الحكيم" على توفير فئة متنوعة من الشخصيات الغربية، مختلفة الجنسيات؛ حتى يتيح لشخصيته البطلة "محسن" فرصة الاحتكاك مع أكبر عدد من الثقافات الأجنبية (فرنسية، روسية، أمريكية ...). فكيف جسدت تلك الشخصيات ثقافاتها من خلال ملامحها وسلوكياتها ؟

✓ **شخصية "أندري":**

فرنسي الجنسية، يعيش مع زوجته "جرمين" وابنه "جانو"، عامل بأحد المصانع في القرية برفقة زوجته. كان "أندريه" يعاني سوء الظروف المعيشية، وطول ساعات عمله، إذ كان يصل إلى المنزل شاحب الوجه، منهوك القوى مع زوجته، حيث كانا يعملان ثماني ساعات في النهار.

من طباع "أندريه"، أنه كان لعوبا يحب اللهو والعبث، إذا ما وقعت عيناه على إحدى الأمريكيات داخل المقهى، يعجب بها ويركز كل اهتمامه عليها، يقول لـ"محسن" :

- تأمل هاتين العينين الزرقاوين، كأنهما في لون زرقتهما بحيرتان من بحيرات الجنة !.. [26]

من طباعه أيضا، العصبية والقلق والنرفزة، إذ كان يظهر بعض عصبيته "لمحسن" على إثر ما يفعله أو ما يتلفظ به معه، فبينما كان "محسن" في المقهى يراقب عشيقته كان بين الحين والآخر يسترسل في تصوراته وذكرياته ناسيا "أندريه"، فيتعصب هذا الأخير جراء التجاهل والتناسي.

كما كان على دراية بأمور النساء، إذ كان "محسن" يستشيره في كل كبيرة وصغيرة في علاقته "بسوزي". عدا ذلك لم يكن يشغل نفسه بأي نشاط خارج أوقات العمل، لا بممارسة الرياضة، ولا بالمطالعة، ولا بالاستمتاع بمختلف أنواع الفنون المتاحة له.

✓ **شخصية "سوزي":**

"سوزي ديبون" شابة فرنسية، ذات عينين متسعتين من لون الفيروز، تزينهما أهداب طويلة شقراء. [27] يقول عنها "محسن":

« أراها في شباكها تشرف على الناس بعينين من فيروز... ». [28]

"سوزي" فتاة تعيش في شقة لوحدها، عاملة تسعى لكسب رزقها بمفردها، بعيدا عن الجو الأسري، تعمل بائعة للتذاكر في شباك المسرح، حيث أن « الحرب الكبرى قد جعلت الفتاة هنا كالشاب، تسعى وراء رزقها بمفردها، نعم هذه الآنسة إن صدق ظني فهي عاملة شباك التذاكر بمسرح (الأوديون) ». [29]

كما أن طبيعة العمل لا تهمها؛ فالمهم – عندها- جني المال، والوصول إليه بمختلف السبل، حتى ولو بطرق وسبل غير مشروعة، فقد كانت تعبث مع رب عملها لتحظى بالمكانة وتنال المال.، تعلق العاملة "كلوتيد" على سلوكه مع "سوزي" قائلة :

«إنه لا ريب حدث بينكما شيء يا "مدموزيل سوزي"؛إن خلقه لا يسوء إلا يوم يكون الأمر بينكما.. » [30]

عدا هذا يمضي ساعات يومها المتبقية بعد الدوام بين المطاعم والنوادي، فلا شاغل لها ولا ضابط، فهي مثال الفتاة المتحررة اللامبالية.

- ✓ **شخصية "إيفانوفيتش":**

"إيفانوفيتش" روسي الجنسية، ترك بلاده منذ بضعة أعوام ليحط رحاله بباريس، إنه عامل فقير، يقطن إحدى الحجرات الصغيرة في إحدى دور العمال، كان نحيلا، شاحبا، أبيض الملامح، يعاني من ذات الرئة. [31]

إضافة إلى أنه يعاني الوحدة والعزلة، يسأله صاحب الحانة مشفقا :

« – ... إنك تعيش وحدك فيما أعلم يا مسيو "إيفان" !..

- إنني دائما وحدي في الحياة !.. ». [32]

إلا أنه يملأ فراغه بالقراءة والتفكير؛ حين رآه "محسن" بالطعم كان يحمل بيده كتاب (رأس المال) لـ"كارل ماركس"، فالكتب مكدسة في كل مكان في الحجرة، [33] حيث كان يمضي وقته بتأملها؛ ما يكشف عن شخصية متبحرة في مختلف المعارف والعلوم والثقافات.

منذ ذلك اليوم، الذي تعرف عليه فيه "محسن" بالمطعم، لم يظهر إلا في غرفته يعاني الألم والأوجاع.

كما حملت القصة في طياتها عدة شخصيات ثانوية، تتمثل هذه الشخصيات في والجد والجدة، "جرمين" زوجة "أندريه"، وولدهما "جانو". إن الجدة أو أم "أندريه" كانت بمثابة الأم لـ"محسن" – حين إقامته في بيتها- حيث كانت تمده بالحنان، وتطمئن عليه قبل النوم، كما أنها كانت تنصحه وترشده إلى كيفية التصرف في تلك البيئة الجديدة المختلفة عن بيئته الأصلية. أما "جرمين" فقد كان "محسن" يستشيرها في بعض الأمور الخاصة بالنساء.

تنوعت الشخصيات الغربية في الرواية بين الفئات العمرية، والانتماء الاجتماعي، .... مما مكن تسليط الضوء على عينات متنوعة من النماذج الغربية...

يمكن تلخيص أهم السمات التي وسم بها "الحكيم" شخصياته ضمن الجدول الموالي [34] :

الشخصية	الجنسية	السن	الملامح	الدور الاجتماعي	المستوى التعليمي	السلوك
محسن	مصري	شاب في مقتبل العمر	زنجي	طالب بالجامعة	دراسات عليا	هادئ، منضبط، محب للعزلة
أندريه	فرنسي	/	/	عامل	/	لا مبالي، محب للعبث واللهو
سوزي	فرنسية	شابة في مقتبل العمر	شقراء	عاملة	/	لا مبالية، مستهترة، متحررة

إيفانوفيتش	روسي	/	أبيض	عامل	مفكر، مدمن على القراءة	محب للعزلة
الجدة	فرنسية	/	/	ماكثة بالبيت	/	حنونة، و شديدة الحرص والاهتمام
الجد	فرنسي	/	/	/	/	شديدة الحرص والاهتمام
جرمين	فرنسية	/	/	عاملة	/	/
الشيخ المصري	مصري	/	/	باحث	دراسات عليا	/

حددت الملامح الأولى للشخصيات بعض ميزات العالم الذي تنتمي إليه، فالشخصيات الشرقية من الطبقة التي نالت قسطا من المعرفة، وقصدت البلاد الغربية لإكمال مشوارها المعرفي، بعيدة عن المادية، تحرص على الاستفادة من الجو الثقافي الذي هي فيه. أما الشخصيات الغربية؛ فهي من الطبقة العاملة في معظمها، حاول "الحكيم" من خلالها التغلغل في أعماق المجتمع الفرنسي للوقوف على حيثيات يومياته، مما أتاح له عكس جانب من الحياة في تلك المرحلة.

3- الأنا والآخر من خلال سرد العلاقات :

جمعت شخصياتَ "الحكيم" عدةُ علاقات تنوعت ما بين الصداقة، والحب، والجوار، ساهمت بدورها في إبراز ذلك التقارب أو التباعد الثقافي والروحي بين كل منها.

- فكيف تجلى ذلك من خلال العلاقات التي ربطت "محسن" بغيره من الشخصيات ؟

3-1- من خلال علاقة الصداقة:

تربط "محسن" علاقة صداقة مع الشاب "أندريه" ابن الأسرة التي يسكن معها في الريف الباريسي. "فأندريه" كان صديقا لـه أيام غربته، كما كان بمثابة جسر العبور من الحضارة الشرقية إلى الحضارة الغربية. لكن هذه العلاقة بيّنت ذلك الاختلاف بين الشابين؛ "محسن" الذي يجنح إلى المثالية ويسبح في الخيال، و"أندريه" الذي يؤمن وبالواقعية ويحيى على المادية، وينتقد خيال "محسن" ويراه وَهْمًا. فمن أول ظهور لهما - في الرواية- يبدو الفارق بينهما - من حيث اهتمامهما ونظرتهما لأمور الحياة- فقد دعا "أندريه" "محسن" لحضور جنازة أحد معارفه التي كانت بالنسبة إليه بمثابة (نزهة قصيرة)؛ حيث أظهر عدم مبالاته لدخول الأماكن المقدسة (الكنيسة)، على عكس "محسن" الذي قال له لائما :

« - ... آه.. إني لن أغتفر لك هذا التهاون منك.. إنك كنت تعرف أني داخل إلى هذا الحرم المقدس ولا تقول لي حتى أعد نفسي !..

فابتسم "أندريه" وقال :

- أيها العصفور الشرقي!.. تعد نفسك لدخول الكنيسة ما معنى هذا ؟.. إنا ندخلها كما ندخل القهوة ... أي فرق ؟.. هنا محل عام، وهناك محل عام...

فلم يلتفت إليه "محسن" وهمس كالمخاطب لنفسه :

- بل هناك السماء !.. وليس من السهل علي الصعود في كل لحظة.. إنه لمجهود !..». [35]

"محسن" - عصفور الشرق- تربى على احترام الأماكن المقدسة، فهو حتى وإن كان في بلاد الغرب فإنه لم يخرج عن مبادئ تلك التربية، فبدخوله الكنيسة « خيل إليه أنه باجتيازه العتبة قد ترك الأرض، وارتقى إلى جو آخر، ... هنا أيضا عين الخشوع وعين الشعور، الذي كان يهز نفسه كلما دخل مقام السيدة زينب !.. أيضا عين السكون، عين الظلام في الأركان، وعين النور الضئيل الهائم كالأرواح في جو المكان.. إن بيت الله هو بيت الله في كل مكان وكل زمان !..». [36]

فـ"محسن"، على عكس صديقه الفرنسي، يعي أهمية مثل تلك المواعيد الروحية، ويحرص على توفير الجو الملائم لها.

إن علاقة الشرقي بالمقدسات أو بأهل السماء – على حد تعبير "محسن"– تختلف عنها عند الغربي؛ فهي قائمة على علاقة شديدة الصلة، بالحياة اليومية. فـ"محسن" في بداية قصته يوجهه إلى (حاميته السيدة زينب) : « إلى حاميتي الطاهرة السيدة زينب ». [37] ، فما من مرة وقع في شدة إلا ووجد العزاء عند باب ضريحها، ذي القضبان الذهبية، وكل نجاح ظفر به هو دفعة من يديها، وكل عطف هو نظرة من عينيها، وكل ابتسامة من الحظ إنما هي ابتسامة من شفتيها، إنه يتخيل هيئتها ووجهها وملامحها، ويعتقد أنها في السماء بردائها الأبيض إنما تنظر إليه دائما وترعاه وتجعله من شأنها كأن هذا هو عملها.

كما كان "محسن" لّما ينشغل بملذات الحياة وينشغل بأمور الأرض – على حد تعبيره– يرى كأن السيدة قد نسيته، فيفطن ويذكر لوقته أنه في تلك الساعات وتلك الظروف إنما هو الذي كان قد ينساها..، نعم إنها لا تنسى من ينساها، بل إن أهل الأرض لينشغلون أحيانا بما يصادفهم من فوز أو لذة أو متعة، وينسون أنفسهم وينسون السماء وأهلها، عند ذاك تتركهم السماء في حقارتهم الأرضية ووحدتهم الباردة، فلا يستيقظون ويرون ما صاروا إليه، إلا يوم يحتاجون إلى حرارة العزاء وإلى العطف العلوي.

لقد كان (مسجد السيدة زينب) المكان الذي يقضي فيه نهاره أيام الدرس، وكانت السيدة هي التي تقلب صفحات الكتب فيما يخيل غليه، وكانت هي التي تصبره وتشد عزيمته، كما كانت هي التي تجفف – بأناملها الرقيقة النقية– دموع حبّه الأول، وآلامه الأولى.. إنه لم يكن وحيدا، لأن له صديقا ونصيرا من أهل السماء. [38]

كما أن "أندريه" أظهر موقفه من "محسن" منذ بداية القصة، حين رآه يتناول البلح، ويلفظ نواه على الطريق، فتعجب لأمره ووبخه جراء تصرفه المشين – في

نظره- وأخبره أن عليه ترك عاداته الشرقية في الشرق، فلا يجوز أن يجلبها معه إلى بلاد العالم والحضارة والرقي والازدهار، وأن عليه أن يتأقلم مع البيئة الجديدة، ويتعايش مع الواقع ويترك الأوهام واللامبالاة.

فكل من يحيط به يؤكد أنه رجل خيالي إلى حد يبعده عن الواقع، يقول له "أندريه" في إحدى المناسبات قائلا :

« - إنك رجل خيالي، وهذه مصيبتك !..

قالها أندريه وهو ينظر إلى "جرمين" فأمّنت على قوله برأسها وأضافت :

- من غير شك، لا سبب عندي لفشل "محسن" غير أنه خيالي أكثر مما ينبغي... »[39].

ربما، لهذه الصفة في بطل "الحكيم" اختار له لقب (العصفور) في عنوان قصته، دونا عن سائر الطيور الأخرى، لتميّزه بأنه حالم، فالعصفور طالما يذهب حالما محلقا في سماء أفكاره وأحلامه، يتوق إلى الحرية والانعتاق، و"محسن" دائم التحليق في سماء أفكاره، والسباحة في بحر أمانيه.

لكن "محسن" على الرغم مما يبدو عليه من حلم وسذاجة؛ إلا أنه كان واعيا سياسيا وثقافيا واقتصاديا، بيد أنه لم ينضم إلى أي تكتل، فأمريكا كانت موضع سخطه واشمئزازه، يقول لصديقه "أندريه" :

« يخيل لي يا "أندريه" أن هؤلاء الأمريكان خلقوا من الإسمنت المسلح؛ لا روح فيهم، ولا ذوق ولا ماض!.. إذا فتحت صدر الواحد منهم وجدت في موضع القلب (دولارا)! .. إنهم يأتون إلى هذا العالم القديم حاسبين أنهم بالذهب يستطيعون أن يشتروا لأنفسهم ذوقا، ولبلادهم ماضيا!.. »[40].

كما أنه من خلال إقامته في منزل والديّ صديقه الفرنسي، تمكن من التعرف عن قرب على واقع المعيشة لدى الطبقة العاملة في فرنسا، فالعجوزان يعتمدان على الأجر الذي يدفعه "محسن" مقابل الإقامة معهم، و"أندريه" وزوجته مضطران

للعمل في مصنع القرية طوال اليوم لتلبية متطلباتهما اليومية، رغم القسوة وظروف العمل السيئة.

« اتجهت العجوز إلى ابنها تعانقه، وتصيح في حرارة حقيقية :

- ... ما كل هذا الشحوب ؟..

- إننا يا أماه نعمل ثماني ساعات في النهار ! ..

قالها "أندريه" وهو ينظر إلى أبيه... فلما سمع قول "أندريه" صاح في حدة :

- يا لها من وحشية ! .. إن هذا لم يعد يسمى عملا، إنما هو الاسترقاق.. الرق لم يذهب من الوجود.. لقد اتخذ شكلا آخر يناسب القرن العشرين.. هاهي ذي جيوش من العبيد يسخرها أفراد معدودون من السادة الرأسماليين !..» [41]

الكل مدرك حجم الكارثة، فـ« فرنسا الآن فريسة أصحاب المال الأمريكيين، وإنّ هؤلاء الأمريكيين قد بلغ بهم عتوّهم واعتدادهم بثرائهم أنّ الواحد منهم لا يوقد(سيكاره) إلاّ بورقة مالية مشتعلة، تحت أنظار الشعب الفرنسي الفقير ...» [42].

من خلال وضعية عمل "أندريه" وزوجته في المصنع يطرح "الحكيم" وضعية العمال الفرنسيين في ظل النظام الرأسمالي – هذا تزامنا مع تفشي الاشتراكية حيث فشا أمرها في باريس، وأصبحت بدعة يتبعها الناس مقلدين- فقد عسرت الحياة، وهوى سعر الفرنك، حيث يستمر وقت العمل لثماني ساعات، من أجل لقمة العيش. [43] كل ذلك سبب ثورة في أوساط الطبقة العاملة، غذتها صحيفة (الأومانيتيه) التي راح الوالد العجوز – المستاء من وضعيته الاجتماعية ووضعية أبنائه المهنية- يردد آراءها لابنه "أندريه" :

« – ينبغي أن تنقص ساعات العمل على الأقل، حتى تستردوا بعض حريتكم، وبعض وقتكم، حتى تنقذوا ما بقي لكم من صحتكم، وحتى نجد لنا – نحن العاطلين- عملا نسد به الرمق ! ..

- إنك تجهد نفسك في الكلام يا أبتاه ! .. لقد قُلت الحقيقة : نحن عبيد القرن العشرين، ومتى كان للعبيد حق الاعتراض أو حق الاقتراح ! .. »[44]

يبدو أن تلك الآراء وجدت لها صدى في أوساط العمال، يقول "أندريه" لمحسن" حين سأله عن عدم تواجده في المصنع :

« لا مصنع اليوم، ولا قدم ولا ساق.. ألم تقرأ صحف الظهر.. قد أضرب العمال في مصانع (كوربفوا)، أضربنا جميعا إلى أن يعيدوا النظر في مطالبنا..»[45]

من خلال طرح "الحكيم" لهذه القضية إنما يؤكد فكرة (الابتلاعية) التي تناولها في آرائه التعادلية حيث يرى أن كل قوة تتضخم تريد ابتلاع غيرها.. ففي المجال السياسي والاجتماعي مثلا : الرأسمالية أرادت ابتلاع العمال.. الاستعمار يريد ابتلاع الشعوب.. الطبقة القوية تريد ابتلاع الأمة كلها.. [46]

كما يشير – من خلال تتبع يوميات "محسن" لدى عائلة "أندريه– إلى غياب مهمة الأسرة في تربية الأبناء، فالجدة كانت قد ذاقت ذرعا بتصرفات حفيدها "جانو" – الذي تتكفل برعايته طوال ساعات عمل وأبويه بالمصنع– حيث قالت: « لم يبق لي جلد على تهذيب هذا الغلام، وإني أصارحكما القول : هذا ليس من عملي، إنما هو عمل الأبوين، وما دُمتُما تتركان لي ابنكما طول النهار، وتنصرفان إلى المصنع، فلا أمل في أن ينشأ ولدكما على الخلق القويم ! ..

فأجاب "أندريه" في غير اكتراث :

- وهل تظنين أن هذا من عملنا نحن ؟.. هذا من عمل المدرسة، وسندخله المدرسة؛ أما نحن فلدينا عمل آخر كما تعلمين ! .. »[47]

فتتأسف الجدة على أنه لم يعد هناك بيت ولم تعد هناك أسرة.. حيث تفرقت وتشتتت في عصر الصناعة، وغاب عنها دور الأم في التربية والتعليم لتتكفل الدولة بذلك مقابل مبلغ مال.

لقد وفر "الحكيم" لـ"محسن"، من خلال هذه العلاقة، فرصه الاحتكاك بـالجو الأسـري داخل العائلة الفرنسـية، مـم أتـاح لـه الكشـف عـن مسـتوى المعيشـة لأفرادهـا، وظروف عملهم، ونظرتهم للحياة، ومهام كل فرد فيها.

تكشف العلاقة بين "محسـن" و"أندريـه" عـن مجموعـة ثنائيـات متناقضـة، يمكـن تصنيفها حسب الجدول الموالي:

الشخصية	السلوك	التعامل مع الواقع	النظرة إلى المقدسات	الجو الأسري
"محسن"	الهدوء، الانضباط، حب للعزلة	المثالية، والغرق في الروحانيات وعالم الخيال	احترام وتقديس وتعظيم	ترابط وتقديس
"أندريه"	اللامبالاة، للعبث واللهو	الواقعية، والغرق في الماديات	استهزاء ولا مبالاة	تشتت وضياع

3-2- من خلال علاقة الحبّ:

جعل "الحكيم" بطله يمر بتجربة حب، ربطته بإحدى الشابات الباريسيّات، التي وصفها "الحكيم" بأنها : « تجر خلفهما أسيرها وهو مسحور بجمال عينيها الفاروزيتين، تزهران في السواد، كأنهما نجمتان بازغتان في صدر الليل». [48]

كان "محسن" أحد أسراها، وكان في حبه أشد ما يكون حياءُ الشرقي وخياله؛ [49] حييّ تأخذه موجات الخيال والأحلام، حيث كان يراقب محبوبة خياله "سوزي" من المقهى المجاور للمسرح الذي تعمل فيه طوال ساعات يومه، دون أن يتعرف على اسمها، ولا على مقر سكناها.

كان "أندريه" يتعجب لأمره، وينكر عليه تصرفه ذلك، وضحك مرة قائلا :

- ..آه.. أيها العاشق الشرقي الذي ينفق أيامه في قهوة يحلم، وحبيبته على بعد خطوتين.. ألا تستطيع أن تبرح هذا المكان ؟... ولماذا لا تذهب إليها فتفاتحها بما في نفسك ؟... [50]

وبينما هو غارق في تأملاته إذا "أندريه" وزوجته، فراحا يصيحان به : عصفور الشرق وحيد في القفص ! ... في قفص الحب أيها المسكين ! ... [51]

لكن "محسن" لا يتأذى من تلك الاستهزاءات، ولا يأبه بالتعليقات؛ بل إن أجمل اللحظات عنده ساعة يقف أمامها ينتظر، وهو يعلم أنها لن تُلقي إليه بكلمة تسر خاطره...، [52] كيف لا وقد اعتاد مثل ذلك في بلده، إنه في باريس يعشق على الطريقة الشرقية، فهو يتذكر جيدا صورة عمه "اليوزباشي سليم" في قهوة "الحاج شحاتة" في حي "السيدة زينب"، وهو جالس ينتظر لساعات طويلة شاخصا إلى دار محبوبته "سنية" آملا أن يلمح لون ثوبها الحريري الأخضر خلف (المشربية)، [53] وهي تصرفات يعدّها العشاق الشرقيون برهانا قويا على هيامهم بالمحبوبة، فلا أحب إلى نفوسهم من التعبد أمام محراب الحب. وهو يعلم أن الآلهة لا تكشف سرها لأول قادم، وأن الملوك والعظماء لا يظهرون لكل من يطرق أبوابهم، إنما ينبغي الصبر الطويل على الجلوس بأعتاب الهياكل والقصور،... فإن الصبر في الفن والحب هو مفتاح الطريق ! .. [54]

بل إن قداسة العلاقة الودية تمتد إلى عدم رضاه بأن تعرض العواطف علنا في الشوارع – حينما رأى فتى وفتاة من أهل باريس، يتعانقان خلفه– .. كما اعتاد البارسيون أن يفعلوا غير حافلين بعاذل أو رقيب، وهي المشاعر التي ينبغي – برأيه– أن تحفظ في الصدور كما تحفظ اللآلئ في الأصداف..

لكن زوجة صديقه تلفت انتباهه إلى أن الفتيات الباريسيات لا يأبهن بمثل ذلك، وأن « المرأة لا تقنع بالخيال، بل بالحقيقة.. ». [55]

هذه بعض صفات العقليات الشرقية التي تركن للضعف، والحلم، يمكن أن يكون هذا السبب أو أسباب أخرى، جعلت صديقته الفرنسية "سوزي" تتركه بعد

أسبوعين فقط من تعارفهما. « ويعلم القارئ منذ الصفحات الأولى الأولى للرواية أن هذه العلاقة ستفشل؛ بسبب انفصال مثالية "محسن" عن تربة العلاقة الواقعية التي يقيمها مع "سوزي"».[56]

فـ"محسن" يحلم بالجمال الروحي، وتلك الفتاة الفرنسية - بالرغم من جمالها الجسدي- لا تملك جمالا روحيا ولا خلقيا، بل إنها تستعمل جمالها وجسدها للإيقاع بالرجال، ولا يهمها شيء، فهمها الوحيد هو جني المال والجري وراء المكانة والمنصب، وتمضية الوقت.. لذا كانت عشيقة لرب عملها في الوقت نفسه الذي كانت تواعد فيه "محسن" المتيم بحبها، إذ خيل له أنها كفتيات الشرق مخلصات لأحبائهن، لكنه حقيقة انصدم وخاب أمله لعدم اكتراثها للمشاعر التي يكنّها لها.

هكذا كانت "سوزي" فتاة لعوبة، أنانية لا تأبه بشيء سوى نفسها، واستعباد لغيرها، حيث أنها ألحقت الأذى بـ"محسن" وجعلته يتعذب، يجتر ألمه ساعات وأيام طوال، وخطرت له خواطر وطافت به هواجس، وانتهى من تأملاته الطويلة إلى عزم أن يراها ويحادثها مرة أخيرة، لكن آماله المعلقة على المحادثة الأخيرة لم تتحقق، ليلجأ إلى وسيلة أخرى (كتابة رسالة خطية) يفصح فيها عن آلامه ومشاعره المجروحة. لترد عليه بأنها حقيقة أنانية، لكنها لم تكن تعلم بأنها تسببت له في كل ذلك الأذى، وأنها ما تزال تعتبره صديقا.[57]

فيرد عليها خائبا : « ...إن من السهل على عقليتي الشرقية البسيطة، أن تعيش في الأحلام كما تعيش في الحقائق، وإنها لتأبى أن تؤمن بانهيار الأشياء بمثل هذه السرعة !.. لقد كنت أنت، من غير شك، تعلمين أن هذا كله ليس سوى عبث لن يدوم طويلا، ويوم كنت أعتقد، أنا، أني أحيا في جنة الأرض الجميلة، كنت تعرفين أني إنما أحيا في مهزلة مبتذلة سخيفة !.. ».[58]

لكنه أيقن - في الأخير- أن السبيل التي يسلكها مقطوعة، وأن عليه التعايش مع الواقع، يقول لجاره "أيفانوفيتش" :

« - ... إننا نجهل الواقع وطرائقه المباشرة.. لا شيء يكتسب بالخيال في هذه الحياة !..»[59]

كما شبه "الحكيم" "سوزي" بأوروبا، فأوروبا مثلها مثل "سوزي ديبون" شقراء جميلة، رشيقة، ذكية، لكنها خفيفة، كما أنها أنانية لا يعنيها إلا نفسها واستعباد غيرها، [60] فهي مثلها مثل "سوزي ديبون" لا تعرف غير حياة الواقع، ولا يهمها شقاء الغير ولا تحب الحياة إلا في الحياة.

إن العلاقة بين "محسن" و"سوزى" تمثل اختبارا تجريبيا لهذه العلاقة المفترضة، حيث تثبت العلاقة صحة الفكرة التي تقوم عليها الرواية : (مثالية الشرق) مجسدة في "محسن" (ومادية الغرب وحسيته ونفعيته) كما تجرى في دم "سوزى"، [61] فلاختلاف الطرفين اختلافا جذريا؛ لن تنجح العلاقة رغم المحاولات...

يلخص الجدول التالي وضعية كل من "محسن" و"سوزي" عبر مراحل العلاقة :

أطراف العلاقة	حالة الشخصية عبر مراحل العلاقة			
الشخصية	ما قبل التعارف	أثناء التعارف	أثناء العلاقة	بعد العلاقة
محسن	إعجاب وترقب	هيام	غرق في الأحلام	ألم وعذاب
سوزي	تجاهل	تقبل	الاستمتاع بتمضية الوقت	لا مبالاة

3-3- من خلال علاقة الجوار:

تُخرج الرواية من بين سطورها منفيا روسيا، إنه العامل الروسي الأبيض المنكر أن روسيا جنه الفقراء - كما يراها البعض- الفار من الثورة الاشتراكية في بلاده إلى باريس، ليلتقي "محسن" الهارب من وجع ألم محبوبته الباريسية، لتربطهما

علاقة جوار في النزل الذي يقيم فيه. إنه « الروسي الثائر، الواقع في منتصف الطرق بين الشرق والغرب !.. » .[62]

ما يؤكد ذلك علاقته "بمحسن"، وموقفه منه؛ فإن كان كل المحيطين بـ"محسن" قد أنكروا عليه إغراقه في الخيال، فإن الروسي "إيفان" يرى الأمر من زاويه أخرى، يقول له :

« آه !.. (الخيال).. هو ليل الحياة الجميل !.. هو حصنها وملاذها من قسوة النهار الطويل... إن عالم (الواقع) لا يكفي وحده لحيلة البشر !.. إنه أضيق من أن يتسع لحيلة إنسانية كاملة !.. ».[63]

يمكن أن يكون هذا هو الخيط الواصل بين "محسن" و"إيفان"، حيث نجدهما متفقان في نقاط عديدة من وجهات النظر، خاصة ما تعلق بالشرق وروحانيته، والراحة التي توفرت له مع أنبيائه، إذ يندهش "محسن" في إحدى زياراته لـ"إيفان" – وهو الذي اختار الإلحاد ديانة له– حين رآه يتصفح كتبا وهو مُجهَد من المرض، فصاح في دهشة :

« – (التوراة)، و(الإنجيل)، و(القرآن) !.. عجبا إنك فيما أعلم لا تؤمن بشيء..

فقال الروسي، كالمخاطب نفسه :

- أريد أن أعرف كيف استطاعت هذه الكتب الثلاثة أن تعطي للبشرية راحة النفس، وأن يغمرها ذلك الاطمئنان !.. نعم !...

- ولماذا لا تؤمن أنت أيضا يا مسيو "إيفان" !..

- آه !.. ثق أني أريد، فالرغبة والإرادة لا يعوزاني.. لكن .. أمن الممكن لمثلي أن يؤمن بالجنة والنار؛ كما يؤمن بها المسيحيون في عصر الشهداء ؟!... ومثل إيمان المسلمين في عهد النبي...»[64]

ثم يقارن بين إيمان هؤلاء وإيمان الغرب في عصره، حيث يقول :« نعم يخيل إليّ أن مثل هذا الإيمان لا يمكن أن يعرفه الغرب اليوم !.. إن الشرق يومَ أعطى الغربَ هذه الأديان؛ إنما أعطاها على النحو الذي ذكرنا، فتسلمها الغرب وألبسها أردية موَشّاة بالذهب، ووضع على رؤوسها التيجان المرصعة بالماس، وأقبضها صولجان الجاه والسلطان والجبروت الأرضي !... »[65] إنه يقصد من ذلك أن الديانات قد

انتزعت من سموها الرباني؛ لتسلم لأيدي رجال الدين الغارقين في المادية والنفعية، الذين حادوا بها عن روحانيتها الشرقية، يقول : « نعم لا شك أن المسؤول عن انهيار مملكة السماء هم رجال الدين أنفسهم !.. أولئك الذين كان ينبغي لهم أن يتجردوا من كل متاع الأرض... »[66] بل لقد « جعلت من المسيحية التي تبشر بالمحبة والسلام، سلاحا أمام محاكم التفتيش ».[67]

إن تلك الروحانية السماوية زالت مع مادية الغرب الذي لقي من "إيفان" انتقادا لاذعا، لِمَا نتج عنه – حسب رأي "الحكيم"– من خراب ودمار للشرق... إن "إيفان" لا ينتقد الغرب إطلاقا، إنما الغرب الرأسمالي تحديدا، إنه رؤيوي آخر في القائمة اللامتناهية الطول من أصحاب الرؤى الذين أنتجتهم الشعوبية الروسية، ليس من رافضي المسيرة الرأسمالية لروسيا، إنما من رافضي مسيرتها الاشتراكية،[68] مثله مثل جميع الرجعيين الرومانسيين؛ لا يرفض الحاضر باسم المستقبل، وإنما يرفضه باسم الماضي.

كما أنه في الواقع لا ينتقد الغرب بل ينتقد إنجازاته الفاسدة، حيث نرى "الحكيم" يضع أعنف الهجاء وأشده مرارة لأنثوية الغرب وماديته، على لسانه؛ فـ"إيفان" لا يكتفي بهجاء مظهر المدينة الأوربية وحسب، بل إنه يقلب المعايير جميعا ويجعل من أعظم إنجاز وأروع فتح في تاريخ البشرية إطلاقا (الصناعات الحديثة) آفة الآفات، ومصدر الشرور والآثام جميعا، فمصيبة المدينة الأوربية نزلت منذ استقرار الصناعة الكبرى، حيث نراه يعرض آراءه مستندا بآراء مشاهير وعظام الفكر الغربي[69]، قائلا :

« أن الصناعة الحديثة فتنت طبيعة العمل عند العامل، إذ أنه أصبح متخصصا في جزيئات دقيقة، ويا للعار؟ ...».[70]

إن ذلك كله خلّف مشكلة عظيمة للبشرية جمعاء، لا حل لها ، إنها مشكلة (وجود أغنياء وفقراء، وسعداء وتعساء على هذه الأرض)، لكنه يرى أن أنبياء الشرق قد عرفوا حل المشكل (أنه لا يمكن أن تقوم عدالة على وجه الأرض بين الأغنياء والفقراء، لذا فهناك مملكة السماء التي تعوض كل من حرم الحظ على جنة

الأرض)، لكن نبي الغرب "كارل ماركس" جاء بإنجيله الأرضي (رأس المال) وقسم الأرض بين الناس، ونسي عالم السماء، مم جعل البشرية يمسك بعضها برقاب بعض، لتقع المجزرة... [71]

كما يشير إلى استغلالها لأهم وسيلة للرقي الحضاري (المعرفة) التي تحولت إلى أداة لاستغلال وتخدير عقول البشرية، فالتعليم العام كان له نتائج سيئة؛ فبدلا من أن من أن يوجه القراء إلى الأعمال الخالة... جعلهم يقرؤون الحماقات المخجلة... يجيبه "محسن" موافقا ومشيرا إلى أن مستوى الذوق العام - وبالأحرى مستوى الثقافة الحقيقية- لا شأن له بكتابة أو قراءة... [72]

« أما العلم الصرف، البعيد عن ضوضاء (الآلة)، ومطامع أصحاب المنافع، فالشرق هو الذي عرفه لذاته، كمظهر من مظاهر العبقرية الآدمية المفكرة، في تعطشها لمعرفة الحقيقة العليا !.. وهنا كل نبل العلم وغايته. هذا العلم الخالص أورثته أفريقيا وآسيا فتاتهما الشقراء أوروبا... ». [73] فأوروبا استغلت العلم لخدمة مآربها وتسويق مشاريعها الحضارية، مستترة برداء التقدم والتحضر، يواصل مذكرا "محسن" قائلا :« لا تنس أن أوروبا هي الوحيدة التي أعدمت في يوم علماءها حرقا، واتهمتهم بالسحر والجنون، وخنقت حرية الرأي حتى شؤون الأدب والفن ». [74]

تلك هي نظرته لوسائل الحضارة الغربية، التي انقلبت أسلحة فتاكة لجوهر الطبيعة البشرية، ولن يصلح حالها إلا بعودتها إلى الحضارة الشرقية، والاستفادة من وسائلها، يقول في ذلك : « لا أصلح لقلبها وعقلها من وسائل الشرق الطبيعية في التهذيب : تعمير قلبها بالدين وعقلها بالكتب السماوية النبيلة الفصيحة، وتركها تصل بالطبيعة لا (محفوظة في علب)... بغير وسيط من الرأسماليين المغامرين، وأصحاب المال الأفاكين... ». [75]

هذا رأي "إيفان" الروسي أو بالأحرى هو رأي الحكيم" -نفسه- حيث يقول في أحد مقالاته : « إذا رجع الغرب إلى حكمة الشرق، ورأى كيف فهم الإسلام الديمقراطية؛ لجنى من ذلك دروسا قد تصلح من فساده، وتُقِيله من عثاره... » [76]

فقد ضاع الغرب، عندما تجرد من روحانيته وانساق خلف ماديته، وأطماعه، غير عابئ بآمال البشرية وأمانيها.. إن الغرب إنما عاش أجمل حياته في ذلك الحلم السماوي وذلك العالم العلوي الذي صنعه الشرق، وإن ضياع الغرب لم يبدأ إلا يوم أفاق من ذلك الحلم... آه... الجنة، الجحيم، جرد عالمنا الأرضي من هذه الكلمات الثلاث التي نبتت في الشرق، تنهار في الحال أروع أعمالنا الفنية. [77]

أخيرا، لقد فهم الشرق أن فتاته ليست إلا غانية خليعة، لا قلب لها ولا ضمير، وليست لها أي قيمة روحية ولا خلقية، وأن مالها السقوط ممزقة الجسد تحت موائد المعربدين في ذلك الحان الذي تشرف نوافذه من جهة على المحيط الأطلنطي ومن الجهة الأخرى على البحر الأسود". [78]

بعدما استفرغ "إيفان" ما بجعبته من ملاحظات وانتقادات لما رآه مركب نقص في مادية الغرب، يعلن لعصفور الشرق "محسن" عن رغبته في الرحيل صوب الشرق مناجيا :« ... أيها الصديق !.. إلى الشرق !.. إلى الشرق !.. فلنرحل معا إلى الشرق !.. لأن أجمل ما بقي لأوروبا إنما أخذته عن الشرق !.. لم تعد حياتي هنا !.. ماذا نصنع الآن ها هنا ؟؟ حتى راحة النفس لا تجدها هنا... ». [79]

هذه رغبته الأخيرة، وهو على فراش الموت، إنه يحن إلى روحانية الشرق، لأنه غير قادر على مواصلة العيش في هذا العالم المحسوس، فهذه المدينة الكبيرة ما هي إلا (مدينة ناقصة) - في نظره- لأنها لا تعرف الحياة إلا في (عالم واحد)، وهو لذلك يريد الهرب إلى البلاد التي تعيش في (عالمين)، تلك البلاد التي ارتفعت فيها المعرفة البشرية إلى قمم (العالمين) إنه عازم على ترك كل شيء والرحيل إلى هناك.. إلى النور... النور الذي يشرق من بلاد الشمس ليغرب في بلاد الغرب.. إنه عازم على بيع كتبه وكل ما يملك ليؤمم وجهه شطر الشرق الرحب، طالبا منه أن يعود به إلى هناك.. إلى الشرق منبع الأحلام والأمان ومنبع الراحة والطمأنينة، يريد أن يرى جبل الزيتون وأن يشرب من ماء النيل وماء الفرات وماء زمزم... [80]

لكن "محسن" يحاول قطع حبل أمنياته وإخباره بأن الشرق في أيامه – تلك- لم يعد ذلك الشرق الذي قرأ عنه وسمع أخباره، وحلم أن يعانق نسيمه المنعش، ويرتوي من نبعه الصافي، فكل شيء تعكر وتسمم جراء التقليد الأعمى، قائلا :

« ... إن ذلك المنبع الذي تريد أن تراه، وتلك الأنهار التي تريد أن تشرب منها، قد تسممت كلها.. إن (الفتاة الشقراء) يوم حقنت فخذها بـ(المورفين) السام لم تترك أبويها سالمين، لقد قضى الأمر ولم يعد هناك نبع صاف، فإن الزهد قد ذهب كذلك من الشرق !.. وإن رجال الدين هناك يعرف بعضهم اقتناء السيارات، وقبض المرتبات... وإن ثياب الشرق الجميلة النبيلة هي اليوم خليط من الثياب الأوروبية،... إن التعليم العام للقراءة، وحق التصويت والبرلمان، وكل هذه الأفكار الأوروبية قد أصبحت في الشرق اليوم مبادئ ثابتة... بل العجيب أن هذه الأفكار والمبادئ التي تعتبر في الشرق اليوم ثابتة ثبوت الآيات المنزّلة قد يناقشها الأوروبيون أنفسهم وينقضونها، وهي ما تزال حافظة عندنا كل قوتها !.. حتى أبطال الشرق قد ماتوا في قلوب الشرقيين !..». [1 8] إنها حوارات جديرة بالتأمل؛ و« هي حوارات مطبوعة برؤية "محسن" لعلاقة التناقض القائمة بين روحانية الشرق المتلوثة ، المقتولة، ومادية الغرب الزائفة ». [2 8] فـ"الحكيم" ينتقد الحضارة الغربية لا على لسان "محسن" الشرقي المتوسطي، إنما على لسان "إيفان" الشرقي السلافي، إن "الحكيم" من خلال شخصية "إيفان" شن حملة ضاربة ضد رجال الدين ورجال الصناعة، ورجال العلم، رجال الدين الذين في نظره هم أول من ينعم بمملكة الأرض، والصناعة هي التي خلقت فئة من الرأسماليين لا دين لها إلا الذهب...

بالرغم من أن " الحكيم" كان صادقا كل الصدق في تصوير "إيفان" بائسا تعسا في حياته المشردة بين أحياء باريس، إلا أنه « ليس له وجود في عالم الواقع الروائي الناضج، وإنما هو قناع أسدله "محسن" على وجهه ليقول لنا رأيه – أو رأي المؤلف على وجه أدق- في الماركسية... ». [3 8] وأنطق هذه الشخصية بما يجعل منها قناعا تستّرت خلفه آراؤه الشخصية في الاشتراكية العلمية.

نستطيع من خلال العلاقة التي جمعت "محسن" و"إيفان" كشف مجموعة الثنائيات المتوافقة والمتكاملة بين النظرتين، يمكن تصنيفها حسب الجدول الموالي :

الشخصية	الحالة النفسية	النظرة للدين	النظرة للعلم	النظرة للنظام الاقتصادي	النظرة للشرق	النظرة للغرب	الخلاص
محسن	ألم ومحاولة الهرب من مرارة الواقع	تلوث على يد رجال الدين	أداة لاستغلال وتخدير العقول	/	تلوثت روحانيته بسبب التقليد الأعمى للغرب	تسبب في خراب الشرق	/
إيفان	ألم ومحاولة الهرب من زيف الواقع	تلوث على يد رجال الدين	أداة لاستغلال وتخدير العقول	وسيلة لاستعباد الطبقة العاملة	المنبع الصافي والملاذ الآمن	منبع الدمار، الحضارة الزائفة	الشرق

تتجلى ملامح واضحة للشرق والغرب من خلال سرد العلاقات التي جمعت بين شخصيات الرواية؛ فمن خلال علاقة الصداقة، يشير "الحكيم" إلى أنه لا يمكن إقامة علاقة بين الشرق والغرب؛ لأنها قائمة على مبدأين متناقضين (المثالية والمادّية)؛ فصداقة "محسن" مع "أندريه" بدت جد متوترة منذ البداية، مما جعلها لا ينسجمان لاختلاف المبادئ والقيم التي يعتقدها كل واحد.

ومن خلال علاقة الحب، يؤكد على أنه لإمكانية إقامة علاقة تزاوج بين حضارتي الشرق والغرب؛ لابد أن يتخلّى الشرق على روحانيته وأن يعيش مع الواقع، ولابد للغرب أن يترك اللامبالاة واللهو، ويقلل من ماديته، فعلاقة الحب التي جمعت "محسن" بـ"سوزي" كانت فاشلة منذ البداية، والحب الكبير الذي يكنه (عصفور الشرق) لفتاته الشقراء التي تخيلها أكثر وفاء وإخلاصا، لم يشفع له أمام لهوها، حيث اعتبرته مجرّد لعبة تسامرها لتمضية الوقت...

أما من علاقة الجوار، فقد رأى أن الشرق والغرب متجاوران ، لكنهما مختلفان جغرافيا وفكريا ودينيا، يحتاج كل منهما للآخر لاستمرار مسيرته التطورية، فمن مجاورة "عصفور الشرق" لـ"ايفانوففتش"، وتحاوره معه، الأمر الذي أفضى إلى وجود صلات حضارية قوية بين العالَمين؛ فالفضل الكبير يعود للشرق في نهضة الغرب، والفضل الأكبر يعود للغرب في خراب الشرق... فالغرب لوّث الشرق وخرّب روحانيته التي أنقذت العالم، وكانت ستنقذه من أزمته الروحية الخانقة لو أنه لم يلوّث شقيقه الشرق بأدران ماديته.

راح "الحكيم" في هذه القصة يعالج قضايا اجتماعية جادة ومتنوعة كالانحلال الخلقي وفساده، مع طغيان الطبقية، وانتشار الفقر والصراع بين الخير والشر، وكفاح الضعفاء ضد التسلط والتجبر والاستبداد بين الحضارات والديانات، فالغرب فعلا يرفض فكرة تزاوج الحضارات فهو يروى أن حضارته هي الحضارة المثلى التي لا ينافسها منافس، وبالتحديد يرفض حضارة الشرق، لكن الشرق مازال تائها يجري لاهثا وراء هذه الأسطورة. ناسيا أو جعله الغرب ينسى أن

الفضل الأكبر يعود لحضارته التي لا تبلى مبادؤها ولا تزول إلا إن عرف قيمتها الحقة، وعن هذه المسألة يقول :" لكن مركب النقص في الشرق يخيل إليه دائما أن الغرب لا يتأخر ولا يمكن أن يتأخر، وما الغرب في حقيقة الأمر إلا متأخرا جدا في كل شؤون الروح والحكمة العليا. [84]

لذا جاءت (عصفور من الشرق) و(يوميات نائب في الأرياف) في فترة زمنية واحدة تغرسان بذور الموقف التعادلي في حياته الفنية، من هنا كانت (عصفور من الشرق) تجسيدا واعيا لموقف التردد بين الحضارتين وذبذبته في الميل لأحد الموقفين. [85] ... فالتعادلية عند الحكيم" « تفسر الحياة الإيجابية بأنها ضرورة وجود جملة من قوى تتقابل وتتوازن، ناهضة بعضها ببعض في المجتمع ...التعادلية هي فلسفة القوة المقابلة والحركة المقاومة للابتلاعية ». [86]

يقول "الحكيم" : « نشرت ذلك في كتابي (عصفور من الشرق)، وقد ترجم إلى لغات أجنبية.. ولكني ما جَنيْت من ذلك إلا تهمة، ألصقها بي كاتب، نشر بالإنجليزية – في لندن– كتابا عن مصر، قال فيه عني أني (رجل رجعي)، واستشهد بفقرات من كِتابي...أدركت عند إذن أن الغرب غير راغب في أن يستلهم من نور الشرق شيئا !.. وأنه مازال يمعن في الاعتقاد بأن كل ما خرج عن حضارة الغرب فهو توحش، وأن كل ما اتصل بجوهر الشرق فهو رجعية !.. » [87] فقد نالت هذه الرواية اهتمام الكثير من القراء وأسالت حبر العديد من النقاد والباحثين لِما حوته من آراء وإشارات.

لكن هناك بعض النقاد والأدباء خالفوا هذا الرأي، نذكر على رأسهم الدكتور **''طه وادي''** حيث قال: « بدلا من أن يشغل "توفيق الحكيم" في قصته (عصفور من الشرق) التي ألفها سنة 1938م، نفسه بقضية كبرى وهي أثر المناخ الأوربي على شاب قادم من الشرق، وأثر ذلك على علاقاته العاطفية والفكرية، نجده بالدرجة الأولى ركز على علاقة "محسن" العاطفية "بسوزي" الفتاة الفرنسية». [88]

كما يبدو جليا أمر إخضاع "الحكيم" شخصياته لسطوة أطروحته، وعدم تمكينها من التمرد على مشروعه الفكري، [8 9] فكلها أبواق لأفكاره التي تسطر تحقيق جمله من الأهداف – كما ظهرت واضحة للناس- كانت قومية وشعبية وإصلاحية، مثلما كانت في(عودة الروح). [9 0] من هنا كانت الرواية تجسيدا واعيا لموقف "الحكيم" من هذه القضية التي شغلت فكره وفكر العديد من الذين عاصروه، ومن جاؤوا بعده، ولا تزال مستمرة إلى يومنا هذا.

الهوامش:

---

[1] هو فكرة مسبقة الصنع، مؤسسة على معتقدات مبالغ فيها، تلصق بجماعة ما. فصناعته تعتمد على الأحكام القيمية العامة وغير المؤسسة التي تطلقها الأنا على الآخر. ينظر G-M. Moura, **Lire L'Exotisme**, Ed. Dunod, Paris, 1992, p.195

[2] حسن شحاتة، **الذات والآخر في الشرق والغرب، صور ودلالات وإشكاليات**، دار العالم العربي، القاهرة، ط.1، 2008، ص.ص.26،27.

[3]

[4] كاتب مصري (1898م - 1987م).

[5] تعتبر هذه الرواية مع روايته الأخرى (زهرة العمر) بداية ما يعرف بروايات المغتربين، التي يمكن حصر تطوّرها في ثلاث مراحل: **الأولى**: يكون فيها بطل الرواية قد حمل كلّ عاداته المحلية معه إلى بيئته الجديدة في الغربة، أي أن انتقاله إلى أوروبا انتقال جغرافي فحسب، يمثل هذه المرحلة "توفيق الحكيم". في **المرحلة الثانية** يكون فيها البطل قد درس بأوروبا وحصل على شهادة، وعاد إلى بلده من دون أن يتمكن من الانسجام مع بيئته الأولى. تمثّل هذه المرحلة قصّة «قنديل أمّ هاشم» لـ"يحيى حقي"، و«موسم الهجرة إلى الشمال» لـ"الطيب صالح". **المرحلة الثالثة** هي ما يمرّ بها الروائيون المغتربون في الوقت الحاضر، فيها يدرس البطل الروائي في الغرب، لكنّه لا يعود، لذا عليه أن يتعايش مع البيئة الجديدة.

[6] محمد حسين الدالي، **عملاق الأدب توفيق الحكيم،** سلسلة اقرأ، ع.545، دار المعارف، د.ت، ص.147.

[7] توفيق الحكيم، **فن الأدب،** مكتبة الآداب، القاهرة، د.ت، ص. 89.

[8] محمد حسين الدالي، **عملاق الأدب توفيق الحكيم**، ص.144.

[9] توفيق الحكيم، **عصفور من الشرق**، منشورات دار النفيس للطباعة والنشر، 2003، ص.9.

[10] محمد حسين الدالي، **عملاق الأدب توفيق الحكيم**، ص.50.

[11] غالي شكري، **ثورة المعتزل، دراسة في أدب توفيق الحكيم**، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط.3، 1982، ص.144.

[12] الملخص بالاعتماد على النص الكامل للرواية، منشورات دار النفيس للطباعة والنشر، 2003.

[13] الرواية، ص.3.

[14] الرواية، ص.22.

[15] الرواية، ص.25.

[16] ينظر الرواية، ص.50.

[17] الرواية، ص.32.

*يحرص "الحكيم" على تعريب الأسماء الأجنبية من شخصيات وأكلات، ومرافق عامة...

[18] الرواية، ص.81.

[19] الرواية، ص.3.

[20] الرواية، ص.4.

[21] الرواية، ص.4.

[22] الرواية، ص.105 وما بعدها.

[23] **التعادلية هي مقاومة الابتلاع**.. **والتعادلية** هي عصارة فكر "الحكيم" التي تناول فيها قضايا الإنسان وصراعه مع القوى الأخرى، ضد طغيان القوة، وهي إرادة التوازن بين قوتين تتجاذبان الإنسان، كما أنها عقيدة ضد الطغيان على الضعف، والعقل على الوجدان، أو الوجدان أو القلب على العقل. فالتعادلية عقيدة أو فلسفة تهدف إلى إلغاء الهزيمة والضعف والقبح والشر والمرض، وتحقيق التوازن بين الإنسان والقوى المقابلة، وتنبيه المنهزم أيضا على أن انهزامه ليس حالة نهائية بل هناك حافز للمقاومة ينبع عن الانهزام نفسه، إنها تستهدف أولا وأخيرا مقاومة الضعف. ينظر ماجدة عطية، **توفيق الحكيم ناقدا**، رسالة ماجيستر في الأدب العربي، كلية الأدب العربي، جامعة الجزائر، 1997، ص.81.

[24] عماد الدين عيسى، **التعادلية في أدب الحكيم بين العربي والعالمي**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990، ص.57.

[25] ينظر الرواية، ص.51.

[26] الرواية، ص.11.

[27] الرواية، ص.32.

[28] الرواية، ص.30.

[29] الرواية، ص.30.

[30] الرواية، ص.34.

[31] ينظر الرواية، ص.ص.122،54،53.

[32] الرواية، ص.53.

[3333] الرواية، ص.54.

[34] تشير الإشارة (/) إلى أن المعلومة غير محددة في الرواية.

[35] الرواية، ص. 10.

[36] الرواية، ص.ص.6،7.

[37] الرواية، ص. 10.

[38] ينظر الرواية، 67،68.

[39] الرواية، ص.29.

[40] الرواية، ص.11.

[41] الرواية، ص.24.

[42] الرواية، ص.26.

[43] ينظر الرواية، ص.25.

[44] الرواية، ص.24.

[45] الرواية، ص.36.

[46] عماد الدين عيسى، **التعادلية في أدب الحكيم بين العربي والعالمي**، ص.56.

[47] الرواية، ص.ص.26،27.

[48] الرواية، ص.142.

[49] ينظر محمد حسين الدالي، **عملاق الأدب توفيق الحكيم**، ص.146.

[50] ينظر الرواية، ص.ص.36،37.

[51] ينظر الرواية، ص.28.

[52] ينظر الرواية، ص.29.

[53] ينظر الرواية، ص.37.

[54] ينظر الرواية، ص.41.

[55] الرواية، ص.142.

[56] فخري صالح، **قبل نجيب محفوظ وبعده، دراسات في الرواية العربية**، سلسلة كتابات نقدية، ع.192، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ط.1، 2000، ص.32.

[57] ينظر الرواية، الفصول : الخامس عشر والسادس عشر والسابع عشر.

[58] الرواية، ص.ص.94،93.

[59] الرواية، ص.65.

[60] الرواية، ص.115.

[61] فخري صالح، **قبل نجيب محفوظ وبعده، دراسات في الرواية العربية**، ص.31.

[62] الرواية، ص.65.

[63] الرواية، ص.66.

[64] الرواية، ص.113،112.

[65] الرواية، ص. 113.

[66] الرواية، ص. 114.

[67] ينظر الرواية، ص.119.

[68] جورج طرابيشي، **شرق وغرب رجولة وأنوثة**، دار الطليعة، بيروت، ط.1، 1977، ص.29.

[69] من هؤلاء نذكر : "دوماهيل"، "آدم سميث"، "هسكلي"...

[70] ينظر الرواية، ص.117.

[71] ينظر الرواية، ص.55.

[72] ينظر الرواية، ص.118.

[73] ينظر الرواية، ص.119.

[74] ينظر الرواية، ص.119.

[75] ينظر الرواية، ص.118.

[76] توفيق الحكيم، **في الأدب والفن**، ص.ص.20،19.

[77] ينظر الرواية، ص.118.

[78] ينظر الرواية، ص. 119.

[79] الرواية، ص.ص.120،119.

[80] ينظر الرواية، ص.125،124.

[81] الرواية، ص.ص.127،126.

[82] فخري صالح، **قبل نجيب محفوظ وبعده، دراسات في الرواية العربية**، ص.32.

[83] غالي شكري، **ثورة المعتزل، دراسة في أدب توفيق الحكيم**، ص.149.

[84] توفيق الحكيم، **في الأدب والفن**، ص.19.

[85] غالي شكري، **ثورة المعتزل، دراسة في أدب توفيق الحكيم**، ص 144.145.

[86] توفيق الحكيم، **التعادلية مذهبي في الحياة والفن**، المطبعة النموذجية، القاهرة، 1976، ص. ص. 120،119.

[87] توفيق الحكيم، **في الأدب والفن**، ص.ص.19،20.

[88] طه وادي، **مدخل إلى تاريخ الرواية المصرية**، دار النشر للجامعات، مصر، ط2، 1997م، ص. 59.

[89] ينظر فخري صالح، **قبل نجيب محفوظ وبعده، دراسات في الرواية العربية**، ص.33.

[90] ينظر توفيق الحكيم، **في الأدب والفن**، ص.19.

✓ **المراجع المعتمدة :**

- توفيق الحكيم – **عصفور من الشرق**، منشورات دار النفيس للطباعة والنشر، 2003.
- **فن الأدب**، مكتبة الآداب، القاهرة، د.ت.
– **في الأدب والفن**، دار النفيس، القبة، الجزائر، 2008.
– **التعادلية مذهبي في الحياة والفن**، المطبعة النموذجية، القاهرة، 1976.
- أحمد زلط، **مبدعون ومجددون، في الأدب الحديث**، ترجمة مصرية عربية مختارة، دار الشرق، القاهرة، ط.1، ت. 2003.
- حسن شحاتة، **الذات والآخر في الشرق والغرب، صور ودلالات وإشكاليات**، دار العالم العربي، القاهرة، ط.1، 2008.
- جورج طرابيشي، **شرق وغرب رجولة وأنوثة**، دار الطليعة، بيروت، ط.1، 1977.
- طه وادي، **مدخل إلى تاريخ الرواية المصرية**، دار النشر للجامعات، مصر، ط.2، ت. 1997.

- عماد الدين عيسى، **التعادلية في أدب الحكيم بين العربي والعالمي**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990.
- غالي شكري، **ثورة المعتزل، دراسة في أدب توفيق الحكيم**، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط.3، 1982.
- فخري صالح، **قبل نجيب محفوظ وبعده، دراسات في الرواية العربية**، سلسلة كتابات نقدية، ع.192، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ط.1، 2000.
- ماجدة عطية، **توفيق الحكيم ناقدا**، رسالة ماجستير في الأدب العربي، كلية الأدب العربي ، جامعة الجزائر، 1997.
- محمد حسين الدالي، **عملاق الأدب توفيق الحكيم**، سلسلة اقرأ، ع.545، دار المعارف، د.ت.
- محمد خير شيخ موسى، محمد خير شيخ موسى، **فن القصة، يوميات نائب في الأرياف، دراسة نظرية تطبيقية**، الدار البيضاء، ط.1، 1948،
- G-M. Moura, **Lire L'Exotisme**, Ed. Dunod, Paris, 1992, p.195